الرّمز الأسطوري وفنيّته في شعر محمود درويش

أ.د. محمّد عيسى* غيداء يونس**

(الإيداع: 14 تشرين الثاني 2020، القبول: 11 تشرين الثاني 2020)

الملخّص:

يهتمّ هذا البحث بدراسة " الرمز الأسطوري وفنيّته في شعر محمود درويش " الذي يعد من أهم الشعراء العرب. والرمز الأسطوري سمة أسلوبية هامة ، ولافته للنظر في الشعر العربي الحديث والمعاصر عموماً وفي شعر درويش على وجه الخصوص .

والأسطورة واحدة من أفضل الأدوات التعبيرية الجمالية التي لجأ إليها الشاعر محمود درويش ،واستعان بها في شعره . فقد تمكَّن بوساطتها من تصوير الواقع في صور أدبية متميزة بتعبيرها الفني الجمالي ،فثقافته الأسطوريّة عميقة إلى الحد الذي استطاع فيه أن يحول الأسطورة جزءاً أساسيّاً في بنية القصيدة .

يأتي هذا البحث في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة ، بيّنّا في المبحث الأول مفهوم الرمز والأسطورة وتناولنا في المبحث الثاني الأساطير التراثية القديمة كأسطورة العنقاء وأسطورة تموز وعشتار وأسطورة جلجامش ورمزية كل أسطورة ودلالتها . أما المبحث الثالث فكان بعنوان " الأساطير المبتكرة في شعر محمود درويش " فقد ابتكر محمود درويش رموزاً جديدة ووظّفها في قصائده ، تحوّلت بعد ذلك إلى رموز أسطورية لها دلالتها ومعانيها من هذه الرموز : شهر آذار ، أحمد الزعتر ، رمز الخبز .

أنهينا البحث بخاتمة ذكرنا فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث ثم قائمة المصادر والمراجع .

الكلمات المفتاحيَّة : محمود درويش ، الرّمز ، الأسطورة .

*أستاذ النّقد الأدبيّ الحديث ، قسم اللُّغة العربيّة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة ، جامعة البعث ، حمص ، سورية

**طالبة دراسات عليا (دكتوراه) ، قسم اللُّغة العربيّة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة ، جامعة البعث ، حمص، سورية

The mythical symbol and its artistry in the poetry of Mahmoud

* Prof. Dr. Muhammad Issa ** Ghaida Younes

(Received: 14 November 2020, Accepted: 11 November 2020)

Abstract :

This research is concerned with the study of "the mythical symbol and its artistry in the poetry of Mahmoud Darwish " who is considered one of the most important Arab poets. The mythical symbol is an important stylistic feature, and it is interesting to consider modern and contemporary Arabic poetry in general and Darwish' s poetry in particular.

The legend is one of the best aesthetic expressive tools that the poet Mahmoud Darwish resorted to, and he used it in his poetry.By means of it, he was able to portray reality in literary images distinguished by its artistic and aesthetic expression, as his mythical culture is so deep that he was able to transform the myth into an essential part of the structure of the poem.This research comes in an introduction, three sections and a conclusion. In the first section we explained the concept of the symbol and the myth, and in the second section we dealt with ancient heritage myths such as the legend of the phoenix, the myth of Tammuz and Ishtar, the Gilgamesh myth, and the symbolism of each myth and its connotations. As for the third topic entitled "Innovative Myths in Mahmoud Darwish's Poetry," Mahmoud Darwish created new symbols and employed them in his poems, which then turned into mythological symbols that have their significance and meanings, from these symbols : the month of March , Ahmad al-Zaatar , the symbol of bread.We concluded the research with a conclusion, in which we mentioned the most important findings of the research, then a list of sources and references.

Key words : Mahmoud Darwish, the symbol, the legend.

* Professor of Modern Literary Criticism, Department of Arabic Language, College of Arts and Humanities, Al-Baath University, Homs, Syria

** Postgraduate student (PhD), Department of Arabic Language, College of Arts and Human Sciences, Al-Baath University, Homs, Syria

مقدمة :

استخدم الشعر العربي المعاصر الرموز الشعرية، وعمل على توظيفها، فأصبحت سمة فنية جمالية في الإبداع الأدبي، و عبَّر معظم الشّعراء من خلال الرّموز عن تجاربهم وأفكارهم ومشاعرهم وجعلوا منه وسيلة فنية للإبداع ، فهو يمنح الشاعر أداةً مفعمة بالإيحاء يستطيع أن ينصهر في النص الشعري فيكسبه أرقى الأساليب، ويضفي عليه مزيداً من الجماليَّة في الشّكل والمضمون بأشكاله شتّى.

ونشير في هذا الصدد إلى أنّ هنالك دراسات عدّة تناولت الرّموز في الشعر، منها دراسة الدكتور "عز الدين إسماعيل" في كتابه "الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية"، و دراسة الدّكتور" محمّد فتّوح أحمد " بعنوان " الرّمز والرّمزية في الشّعر المعاصر "، ودراسة الباحث "درويش الجندي" بعنوان" الرمزية في الأدب العربي"، ودراسة الدكتورة "ريتا عوض" بعنوان "أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث"

ودراسة الدكتور " علي البطل" بعنوان "الرمز الأسطوري في شعر بدر شاكر السّياب"، ودراسة الدكتور " صلاح فضل" بعنوان" شفرات النص، بحوث سيميولوجيّة في الشعر"، ودراسة الدّكتور "علي عشري زايد " بعنوان " استدعاء الشّخصيات التّراثيّة في الشّعر العربيّ المعاصر " ، وآخرون ممن سنعرض لدراساتهم في أثناء البحث .

أهداف البحث :

يهدف هذا البحث في غاياته التتبعية والبحثية إلى:

– اكتشاف الرموز الأسطوريّة في النصوص الشعرية عند محمود درويش، وبيان ترابطها وانسجامها مع تجربة الشاعر، وعرض صورة بحثية واضحة عن مستوى براعته في معالجة الرمز الأسطوري من خلال تحليل النصوص الشعرية .

– بيان العلاقة بين الحالة الوجدانية التي يعيشها الشاعر، ولجوئه إلى استخدام الرمز الأسطوريّ.

– تتبّع مقدرة الشاعر في انتقاء رموزه، واستخدامها للتعبير بها عن معطيات الواقع.

– معرفة الأسباب التي دفعت الشاعر إلى استخدام الرموز الأسطورية في شعره .

أهمِيَّة البحث :

آثرنا أن تكون دراستنا الرمز الأسطوري وفتيّته في شعر محمود درويش عنواناً لهذا البحث ؛لما للرَّمز من قيمة فنِيَّة من جهة ، ولِأنَّ استخدام الرَّمز في شعر درويش من أهمّ خصائص شعره التي تستحقُّ البحث والدِّراسة من جهة أخرى ، فضلاً عن قلَّة الدِّراسات التي عنيت بدراسة الرَّمز الأسطوري لديه .

منهج البحث :

إنَّ منهج البحث في دراستنا هو المنهج الأسلوبيّ الذي يعدُّ من المناهج النّقديَّة الحديثة التي تنطلق أساساً من بيئة النَّص اللّغويّة والبحث عن مكنوناته الجماليَّة ، وما تتضمّنه من علاقات لغويَّة تتقاطع أحياناً ، وتتوازى أحياناً أخرى ،مشكِّلة بذلك شبكة من قيم التَّشابه والاختلاف التي تمثّل جوهر البناء الشِّعريّ ، وهذا يتأتَّى إلينا من خلال التَّحليل والوصف.

مفهوما الرّمز والأسطورة :

يعدّ الرمز من الظواهر الأسلوبيَّة المهمة واللافتة للنظر في الشعر العربي الحديث .

والرَّمز لغةً : – كما جاء في لسان العرب – هو : تصويت خفي باللسان كالهمس، ويكون تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة بصوت إنما هو إشارة بالشفتين ... " والرمز في اللغة كل ما أشرت إليه مما يبان بلفظ بأي شيء أشرت إليه بيد أو بعين " .[1]

واصطلاحاً : يعد ابن رشيق من أوائل من أشاروا إلى الرمز في المصطلحات البلاغية والنقدية ، حيث يذكر درويش الجندي في كتابه الرمزية في الأدب العربي رأياً لابن رشيق، يجعل فيه الرمز " من أنواع الإشارة الأدبية وليس مرادفاً لها ، وألمح إلى تباعده في الخفاء ونأيه عن الإدراك" .(2)

ويعرف ابن رشيق الرمز بقوله : " وأصل الرمز: الكلام الخفي الذي لا يكاد يفهم، ثم استعمل حتى صار الإشارة ". [3]

وعقد قدامة ابن جعفر في الكتاب المنسوب إليه (نقد النثر) باباً للرمز فاتجه به اتجاهاً علمياً و دينياً فقال : " وإنما يستعمل المتكلم الرمز في كلامه في ما يريد طيّه عن كافة الناس والإفضاء به إلى بعضهم ، فيجعل للكلمة أو الحرف اسماً من أسماء الطير أو الوحش أو سائر الأجناس أو حرفاً من حروف المعجم ، ويطلع على ذلك الموضع من يريد إفهامه ، فيكون بذلك قولاً مفهوماً بينهما مرموزاً عن غيرهما وفي القرآن من الرموز أشياء عظيمة القدر جليلة الخطر " .[4]

أمّا الرمز في الأدب والنقد الحديث والمعاصر فقد عرَّفه محمد غنيمي هلال بقوله : " والرمز هنا معاناة الإيحاء ، أي التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوى على أدائها اللغة في دلالتها الوضعية ، والرمز هو الصلة بين الذات والأشياء ، بحيث تتولد المشاعر عن طريق الإثارة النفسية ، لا عن طريق التسمية والتصريح " .[5]

ويرى الباحث محمد فتوح أحمد أنَّ الرّمز بمعناه الدقيق يتميز بأمرين: " أولاً: إنَّه يستلزم مستويين : مستوى الأشياء الحسية أو الصور الحسية التي تؤخذ قالباً للرمز ، ومستوى الحالات المعنوية المرموز إليها ، وحين يندمج المستويان في عملية الإبداع نحصل على الرمز ، ثانياً : إنَّه لابدّ من وجود علاقة بين هذين المستويين ، هذه العلاقة التي تهب الرمز قوة التمثيل الباطنة فيه : نعني علاقة المشابهة ، التي لا يقصد بها التماثل في الملامح الحسية ، بل يقصد بها تلك العلاقات الداخلية بين الرمز والمرموز من مثل النظام والانسجام والتناسب وما إلى ذلك من سمات أساسها تشابه الوقع النفسي في كليهما وهو من هذه الناحية – كما يقرر تندال – على علاقته بالمجاز ولكنه مجاز شطره غير موضوعي أو محدد ، ونعني بذلك شطره الموحى به " .[6]

ويرى نسيب النشاوي أن الرمز هو " الصلة بين الذات والأشياء ، بحيث تولد الإحساسات عن طريق الإثارة لا عن طريق التسمية والتصريح " .[7]

وأدونيس ينظر إلى الرمز في قدرته الإيحائية إذ يقول : " الرمز هو ما يتيح لنا أن نتأمل شيئاً آخر وراء النص ، فالرمز قبل كل شيء معنى خفي وإيحائي" . [8]

والرمز هو "كل ما يحل محل شيء آخر في الدلالة عليه ، لا بطريق المطابقة التامة وإنما بالإيحاء أو بوجود علاقة عرضية او متعارف عليها" .[9] ويقول مصطفى ناصف : " إنما الرمز لمحة من لمحات الوجود الحقيقي يدل عند الناس ذوي الإحساس الواعي ، على شيء من المستحيل أن يترجم عنه بلغة عقلية ، دلالة تقوم على يقين باطني مباشر" .[10]

---

(1) : ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم : لسان العرب، مادة (رمز)

(2) : الجندي، درويش، الرمزية في الأدب العربي، ص46

(3) : القيرواني، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ص(305-306)

(4) : ابن جعفر، قدامة، نقد النثر، ص(52-53)

(5) : هلال، محمد غنيمي : الأدب المقارن، ص398

(6) : أحمد، محمد فتوح : الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ص(40-41)

(7) : النشاوي ، نسيم : مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر ، ص461

(8) : سعيد، علي أحمد (أدونيس) : زمن الشعر، ص160

(9) : أبو زيد، أحمد : الرمز والأسطورة والبناء الاجتماعي، ص585

(10): ناصف، مصطفى : الصورة الأدبية، ص153

الأسطورة لغة واصطلاحاً :

الأسطورة لغة :

جاء في لسان العرب : " (سَطَرَ) السَّطْرُ ، والسَّطْرُ : الصف من الكتاب والشجر والنخل ونحوها ، والجمع من كل ذلك أَسْطُرٌ وأسطارُ وأساطيرُ ، وسطورٌ ، ويقال : بنى سَطْراً وغرس سَطْراً . والسَّطْرُ : الخط والكتابة ، وهو في الأصلِ مصدرٌ ، يقال سَطْرٌ من كُتُبٍ وسَطْرٌ من شجرٍ ... والأساطير : الأباطيل والأساطير : أحاديث لا نظام لها ، وسطَّرها : ألَّفها . وسَطَّرَ علينا : أتانا بالأساطير . يقال سطَّرَ فلان علينا إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل " .[1]

لقد تعدَّدت مفهومات الأسطورة كما هو الحال مع العديد من المصطلحات النَّقديَّة الحديثة ، يعرّفها نذير العظمة بأنّها : " رمز ذو مؤدّى ثقافيّ يفسّر القوى الطّبيعيّة ، أي يحدّد علاقة الإنسان في الكون ، كيف يفهم الحياة والموت والمصير ؟ كيف يفهم الإنجاب والولادة والفناء والمكان وتعاقب الزَّمن ؟ كيف يفهم الصَّداقة و الحُبّ ؟ كيف يفهم الخير والشَّر وصراعهما على مسرح الوجود وفي النَّفس الإنسانيَّة ؟ " .[2]

أما حسين مجيب فيرى أنّها " حكايات خارقة للعادة تتناقلها ألسنة الشَّعب " . [3]

يعدّ الرَّمز الأسطوريّ أحد مصادر التُّراث التي انتقى منها الشَّاعر ما يتوافق وواقعه وحاله ، شأنه شأن الشِّعراء الذين استلهموا الرَّمز الأسطوريّ، " فكان تركيزهم على رموز الانبعاث والتّجدّد والخلق التي وجدوها مجسّدة في شخوص أسطوريّة كتمّوز وأدونيس وعشتار وفينيق وأوزيريس" . [4]

الأساطير المستخدمة في شعر محمود درويش :

تعدّ الأسطورة واحدة من أفضل الأدوات التعبيرية الجمالية التي لجأ الشاعر الحداثي إليها واستعان بها في شعره ، فقد تمكّن الشاعر بوساطتها من تصوير الواقع في صور أدبية متميزة بتعبيرها الفني الجمالي .

وكثيرة هي الأساطير المستخدمة في الشعر الحديث ، فهناك الأساطير اليونانية ، والبابلية ، والسومرية ، والعربية ، وغير ذلك. يعدّ الشّاعر محمود درويش أحد أهمّ الشعراء العرب الذين ساهموا بتطوير الشعر العربي الحديث وإدخال الرّمزية فيه. ولد الشاعر محمود درويش في قرية البروة عام 1941م وتوفّي في التّاسع من آب عام 2008م.

وهو كغيره من الشعراء في عصره ، استخدم العديد من الأساطير في شعره ، فثقافته الأسطورية عميقة إلى الحد الذي استطاع فيه أن يحول الأسطورة جزءاً أساسياً في بنية القصيدة ، ومن هذه الأساطير ما يأتي :

1- أسطورة العنقاء :

لقد استعان محمود درويش برمز العنقاء في ديوانه (أحبك، أو لا أحبك) في قصيدة بعنوان (سرحان يشرب القهوة في الكافيتريا) وهو يصور حال الكفاح الفلسطيني والمقاومة ضد العدو الإسرائيلي ، فكل مرة تخفق محاولة المناضلين في ضرب العدو ، تكون هناك محاولة ثانية يقوم بها المناضلون وإن كان مصيرهم الأسر أو الاستشهاد ، يقول درويش :

---

(1) : ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم : لسان العرب ، مادة (سَطَرَ)

(2) : العظمة، نذير : سفر العنقاء، حفرية ثقافية في الأسطورة، ص60

(3) : المصري، حسين مجيب : الأسطورة بين العرب والفرس والترك دراسة مقارنة، ص8

(4) : بلحاج ، كاملي ، أثر التُّراث الشّعبيّ في تشكيل القصيدة العربيّة المعاصرة ، ص(74)

(5) كل يوم نموت ، وتحترق الخطوات وتولد عنقاء

(6) ناقصة ، ثم نحيا لنقتل ثانية

(7) يا بلادي ، نجيئك أسرى وقتلى

(8) وسرحان كان أسير الحروب ، وكان أسير السلام . [1]

(9) فالمحاولات لا تتوقف ، والمناضلون ماضون في طريقهم . كل يوم نموت ، أي المحاولات مستمرة وإن كانت النتائج مؤلمة؛ لذلك قال درويش : وتولد عنقاء ناقصة ؛ أي ليست مكتملة لا تلبث أن تكتمل حتى تعود للاحتراق مرة ثانية .

طائر الفينيق هو " طائر ينبثق من نفسه ، فهو كائن خرافيّ عرفه الآشوريّون واليونان ، ولا يعيش على الفواكه بل على اللّبان ، والصّموغ العطرة وحين يتمّ من حياته خمسمئة عام يبني لنفسه عشّاً بين أزهار البلّوط أو على قمّة نخلة ، ويجمع فيه أزهار الطّيب ، ثمّ يعدّ لنفسه من ذلك محرقة يضع نفسه فوقها ويلفظ أنفاسه بين أريجها ومن جسده تنبثق عنقاء أخرى ، يكون أوّل عملٍ لها حين تشبّ وتقوى أن تحمل جسد سلفها بعد لفّه بالعشّ المعطّر ، ثم تطير إلى معابد مدينة هليوبوليس بمصر ثم تشعل فيه النَّار" [2]

في (الجدارية) التي اقترنت بمرض الشاعر محمود درويش نراه يلجأ إلى استحضار رمز العنقاء ، الذي يعود للحياة بعد موته ، ودرويش إذ يستحضر هذا الرمز فهو يريد لنفسه الخلود مثل طائر العنقاء ، فهو يرى في موته حياة ،هو يقاوم الموت بأن يخلّد نفسه من خلال إنتاجه الأدبي الذي سيبقى حياً إلى الأبد ، يقول درويش :

سأصير يوماً ما أريد

سأصير يوماً طائراً ، وأسُلُّ من عدمي

وجودي . كلما احترق الجناحان

اقتربت من الحقيقة ، وانبعثت من

الرماد أنا حوار الحالمين ، عزفت

عن جسدي وعن نفسي لأكمل

رحلتي الأولى إلى المعنى ، فأحرقني

وغاب . أنا الغياب . أنا السماويُّ

الطريد[3]

الملاحظ أن رمز العنقاء في قصائد درويش كان رمزاً للانبعاث والتجدد ، فهو يريد من الجسد الفلسطيني أن يكون كطائر العنقاء ، كلما حاول العدو القضاء عليه وإخماد شعلة المقاومة ، والقضاء على المناضلين ، تفجر هذا الشعب ثورة وكفاحاً إلى أن ينال استقلاله وحريته .

(1) : درويش ، محمود : الأعمال الشعرية الكاملة ، مج 1-2، ص221

(2) : البطل ، علي: الرَّمز الأسطوريّ في شعر بدر شاكر السّياب ، ص(100)

(3) : درويش ، محمود : الأعمال الشعرية الكاملة ، مج 1-2 ، ص710

2- أسطورة تموز / عشتار :

لابد في البداية من الإشارة إلى أن هناك تداخلاً في الرموز الأسطورية وحضورها بمسميات متعددة ؛ فتموز هو ذاته أدونيس ودموزي، وعشتار هي ذاتها إنانا ، وهذا إن دل فإنما يدل على التأثر والتأثير بين ثقافات الشعوب القديمة .

جاء في كتاب (مغامرة العقل الأولى) لفراس السواح : " تحذو الأسطورة الأكادية حذو نموذجها السومرية ويغدو الهيكل العام للنزول الثاني صورة تكاد تكون طبق الأصل عن النزول الأول . بحيث يشكل النص بمجموعه مثالاً ناطقاً عن التأثر الشديد للفكر والأدب الأكادي بالنماذج السومرية السابقة وسيطرة الفكر السومري على ثقافة المنطقة . فدموزي في النص البابلي هو تموز كما صار يدعى . أما إنانا فتبدو باسمها الأكادي الجديد عشتار " [1]

يقول درويش في قصيدته (تموز والأفعى) وهو يرمز إلى الانبعاث من جديد :

تموز مر على خرائبنا

وأيقظ شهوة الأفعى

القمح يحصد مرة أخرى

ويعطش للندى المرعى

تموز عاد ليرحم الذكرى

عطشاً وأحجاراً من النار

فتساءل المنفي :

كيف يطيع زرع يدي

كفاً تسمم ماء آباري ؟ [2]

بالرغم من أن تموز مر على الأرض الخراب وبعث فيها الحياة من جديد ، إلا أنه أيقظ عدواً خطيراً، هذا العدو هو الأفعى ، وهذه الأفعى هي الصهاينة ، فبإيقاظ الأفعى يحدث هناك صراع بين الأفعى وتموز ، يظهر هذا الصراع من خلال ما أحدثته الأفعى : (يعطش للندى المرعى ، أحجاراً من النار ، المنفي ، تسمم ماء آباري). هذه الأفعى أحدثت الخراب والدمار في الأرض وأضعفت دور تموز ، ثم يرى درويش أن تموز قد تخلى عن دوره في بعث الحياة في الأرض ، والولادة من بعد الموت .

(1) : السواح ، فراس : مغامرة العقل الأولى ، دراسة في الأسطورة سورية أرض الرافدين)، ص 325

(2) : درويش ، محمود : الأعمال الشعرية الكاملة ، مج 1-2 ، ص (52- 53)

3- أسطورة جلجامش :

منذ خلق الإنسان والنزعة إلى الخلود تراود تفكيره وتشغل عقله ، فعندما خلق الله آدم وحواء في الجنة ، ونهاهما عن الأكل من الشجرة ، وسوس لهما الشيطان ليدفعهما إلى عصيان الله تعالى ، زاعماً أن الشجرة التي نهاهما الله تعالى عن الأكل منها هي شجرة الخلد .

ومن أساطير الخلود القديمة أسطورة جلجامش ، وجلجامش ملحمة بابلية تتحدث عن وقوع الصدمة في نفس جلجامش بعد موت صديقه أنكيدو ، هذه الفاجعة التي دفعته للقيام برحلة للبحث عن الخلود الأبدي الذي ينقذه من الموت ، إلا أنه يفشل في الوصول إلى الهدف الذي سعى إلى تحقيقه ، ويتوصل إلى نتيجة مفادها أن الإنسان يستطيع الخلود بأعماله وأفعاله ، لا بجسده ونفسه .

و" لم يلهب خيال الإنسان شيء كما ألهبته فكرة الموت ، ومن هنا كانت دورة الحياة والموت والبعث هي الفكرة المركزيّة في الدّين والأسطورة ، والفكرة الأساسيَّة التي يتمركز حولها لاشعور الفرد في الماضي والحاضر، و قد حاول الإنسان الاقتراب من فكرة الموت عن طريق ابتكار مجموعة من الرُّموز عبّرت عنها الأسطورة في القديم، وبدراسة ما أنتجه فكر الإنسان عبر العصور نجد أنّ الموت لم يكن أبداً مرحلة نهائيّة من شأنها وضع حدّ لوجود فرد بجميع صوره ، بل اعتبر دائماً بمثابة عمليّة تؤمن عبور الإنسان لحالة أخرى من الوجود تختلف في كلّيّتها عن حياته على الأرض " [1] .

لقد استعان محمود درويش بالرمز الأسطوري جلجامش في شعره ، وجلجامش هو رمز البحث عن الخلود ، يقول درويش في قصيدة (البئر) :

ورأيت أني قد سقطت

علي من قرب القوافل قرب أفعى . لم

أجد أحداً لأكمله سوى شبحي. رمتني

الأرض خارج أرضها ، واسمي يرنه على خطاي

كحذوة الفرس : اقترب لأعود من هذا

الفراغ إليك يا جلجامش الأبدي في اسمك!

كن أخي ! واذهب معي لنصيح بالبئر

القديمة ربما امتلأت كأنثى بالسماء [2]

درويش في هذا المقطع يطمح إلى الخلود مثل جلجامش ، هذا الخلود يكون بأعمال الإنسان ، فجلجامش قد خلد اسمه بملحمته ، ودرويش كذلك يريد أن يخلد اسمه بإنتاجه الأدبي ، إلا أن درويشاً يطمح إلى الخلود والولادة من جديد .

---

(1) : عوض ، ريتّا : أسطورة الموت والانبعاث في الشِّعر العربيّ الحديث ، ص(39)

(2) : درويش ، محمود : الأعمال الشعرية الكاملة ، مج 1-2 ، ص 618

الأساطير المبتكرة في شعر محمود درويش :

لقد ولدت الأساطير القديمة وتناقلها الناس من جيل إلى آخر ووظفها الشعراء في قصائدهم ، إلا أن عدداً من الشعراء المعاصرين لم يكتفوا بالتعامل مع هذه الرموز الأسطورية القديمة فقط ؛ فقاموا بخلق رموز جديدة ووظفوها في قصائدهم، هذه الرموز تحولت إلى رموز أسطورية لها دلالاتها ومعانيها ، يقول الدكتور عز الدين إسماعيل : " وكما يتعامل الشاعر المعاصر مع الرموز القديمة ، فإنه يخلق الرمز الجديد ، وينشئ الأسطورة الجديدة . وهو في هذا يحتاج إلى قوة ابتكارية فذة ، يستطيع بها أن يرتفع بالواقعة الفردية المعاصرة ، إلى مستوى الواقعة الإنسانية العامة ، ذات الطابع الأسطوري ، كما أنه يستطيع أن يرتفع بالكلمة العادية المألوفة إلى مستوى الكلمة الرامزة " [1]

لم يقتصر خلق الأساطير لدى الشعراء المعاصرين على الإنسان ، أي على الشخصية الإنسانية ، بل تجاوزها الشعراء إلى أشياء أخرى كالطبيعة والأماكن وغير ذلك . محمود درويش كغيره من الشعراء المعاصرين له أساطيره المبتكرة الخاصة به ، ومن هذه الأساطير :

1- شهر آذار :

شهر آذار هو بداية فصل الربيع ، شهر الولادة الجديدة ، فالأرض في هذا الشهر تكتسي ثوباً جديداً ، فهو شهر ثورة الأرض وولادتها ، فشهر آذار هو شهر الولادة ، شهر الثورة ، ضد الاحتلال الغاصب ، وهو مرتبط بسياق خارجي وهو سياق قتل البنات أمام المدرسة يقول درويش في قصيدة (الأرض) :

في شهر آذار في سنة الانتفاضة ، قالت لنا الأرض

أسرارها الدموية . في شهر آذار مرت أمام

البنفسج والبندقية خمس بنات . وقفن على باب

مدرسة ابتدائية ، واشتعلن مع الورد والزعتر

البلدي. افتتحن نشيد التراب . دخلن العناق

النهائي – آذار يأتي إلى الأرض من باطن الأرض

يأتي ، ومن رقصة الفتيات – البنفسج مال قليلاً

ليعبر صوت البنات . العصافير مدت مناقيرها

في اتجاه النشيد وقلبي [2]

فشهر آذار في نظر درويش هو شهر الانبعاث والتجدد ، فالمفردات والتراكيب في هذا المقطع – الانتفاضة ، البنفسج ، البندقية ، الورد ، اشتعلن ، افتتحن نشيد ، العناق ، يأتي ، باطن الأرض ، العصافير مدت مناقيرها – تشير إلى الولادة الجديدة .

---

(1) : إسماعيل ، عز الدين : الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، ص217

(2) : درويش ، محمود : الأعمال الشعرية الكاملة ، مج 1-2 ، ص 316

2- أحمد الزعتر :

من الرموز الأسطورية التي ابتكرها محمود درويش ، شخصية أحمد الزعتر ؛ فدرويش جعل من أحمد الزعتر بطلاً أسطورياً من الزمن الحاضر ولم يأتِ به من الماضي . واسم أحمد له دلالة قدسية فهو يأتي بعد اسم محمد في الأسماء العربية ، أما الزعتر فهو مأخوذ من اسم المخيم الفلسطيني في بيروت تل الزعتر ، فأحمد الزعتر " كان من ضمن وجوه قصيدة (أحمد الزعتر) إعادة النظام والترتيب إلى الوجود النضالي العربي الفلسطيني . فبطولته لم تكن فقط للدفاع عن موقف ، ولكنها كانت تقوم بوظيفة إعادة ترتيب جزئيات النضال والمقاومة من جديد "[1] يقول درويش:

كان المخيم جسم أحمد

كانت دمشق جفون أحمد

كان الحجاز ظلال أحمد

صار الحصار مرور أحمد فوق أفئدة الملايين

الأسيرة

صار الحصار هجوم أحمد

والبحر طلقته الأخيرة[2]

فأحمد هو جسم المخيم المبني في لبنان ، وهو جفون دمشق ووظيفة الجفون حماية العين وحراستها ، وهو ظلال لأرض الحجاز الملتهبة بأشعة الشمس المحرقة ؛ فأحمد أشبه بالحارس الموكل بحماية البلاد وساكنيها ، ثم نفاجأ بحصار أحمد ، وتحوله إلى طيف يمر فوق قلوب الملايين . " بين إله يتجسد ويتوحد بالجغرافيا ، وبين حصار محكم ، إيحاء بضعف ذاك الإله ... هذا ما يقلق الصوت الشعري يجعله يضطرب ، فلا يجد إلا أن يصعد الإله / المضعف إلى إله / قادر ؛ قادر على إعادة خلق البحر وصنعه على شكل طلقة "[3]

1- رمز الخبز :

يبتكر محمود درويش رمزاً أسطورياً آخر ، هو رمز الخبز ، هو قوت الشعب ، ودرويش إذ يستخدم هذا الرمز ، يريد به معاني عديدة ، من هذه المعاني أن يكون الخبز رمزاً للكرامة وعزة النفس ، يقول درويش :

وغمست خبزي بالتراب وما التمست شهامة الجار [1]

أحياناً للخبز في القصيدة الواحدة أكثر من معنى ؛ فقد يكون الخبز رمزاً للفقر والحاجة ، وقد يكون رمزاً للموت ، وقد يكون رمزاً للسلام والعيش الآمن ، يقول درويش في قصيدة (الخبز)

---

(1) : النابلسي ، شاكر : مجنون التراب، ص666

(2) : درويش ، محمود : الأعمال الشعرية الكاملة ، مج 1-2 ، ص 308

(3) : صالح ، محمد ابراهيم الحاج : محمود درويش بين الزعتر والصبار، ص (80 -81)

(4) : درويش ، محمود : الأعمال الشعرية الكاملة ، مج 1-2 ، ص10

ما الذي أيقظك الآن
تمام الخامسة ؟
كان إبراهيم رسام المياه
وسياجاً للحروب
وكسولاً عندما يوقظه الفجر
لكن لإبراهيم أطفالاً من الليلك والشمس
يريدون رغيفاً وحليب[1]

يستخدم درويش أيضاً رمز القمح ، وهو أصل الخبز ، ليؤكد احتياجات الإنسان وأهمية القمح في استمرار الحياة ، يقول درويش في قصيدة بعنوان (عن الصمود) :

إنّا نحبّ الورد
لكنّا نحبّ القمح أكثر
ونحبّ عطر الورد
لكن السّنابل منه أطهر[2]

درويش في هذه الأسطر الشعرية يتحدث عن الطبيعة ؛ فهو يرى أنّ الجانب الإنساني فيها ، أهم من الجانب الجمالي ، فالقمح أفضل من الورد – وإن كان الورد يضفي جمالاً على الطبيعة والحياة – فبه تستمر الحياة ويستطيع الإنسان أن يقوم بأداء دوره فيها .

الخاتمة :

خلاصة القول : إنَّ الأسطورة في شعر درويش ، أدّت وظيفتها بصورة فنيّة أضفت على القصيدة طابعاً جمالياً ، بالإضافة إلى ذلك يمكن القول : إنّ محمود درويش استطاع من خلال استخدامه للرمز الأسطوري ، تصوير الواقع المأساوي الذي يعيشه الشعب الفلسطيني .

- استطاع درويش بفضل الرموز الأسطورية التعبير عن أحاسيسه التي لا يستطيع نقلها إلى الآخرين بصورة مباشرة.
- لم يوظف محمود درويش الرموز الأسطورية في شعره لكي يثبت للآخرين مقدرته الشعرية ، واطلاعه الثقافي الواسع .
- استطاع درويش أن يجعل من الأسطورة جزءاً مهماً من أجزاء قصيدته .
- وفّق محمود درويش في استخدام الرموز الأسطورية بحيث تؤدي الهدف الذي يريده منها ؛ فدرويش إذ يستخدم الرمز الأسطوري تموز ، يرمز بذلك لانتصار الحياة على الموت ، ورمز العنقاء التي تحترق وتحيا من رمادها من جديد ، ترمز إلى الانبعاث من جديد، وغلبتها على العقم والموت ، ورمز لاستمرار المقاومة ضد العدو الغاصب على الرغم من محاولة إخمادها والقضاء عليها .
- ابتكار محمود درويش للعديد من الرموز التي تحولت في قصائده إلى رموز أسطورية وتراثية مثل أحمد الزعتر ، وغير ذلك .

(1) : المصدر السابق ، ص314

(2) : نفس المصدر ، ص316

المصادر والمراجع :

(1) ابن جعفر، قدامة : نقد النثر، تحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادي، ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، د، ط 1933م

(2) ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم : لسان العرب، ج6، دار صادر، بيروت، 2003م

(3) ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم : لسان العرب، مج 4 ، دار صادر، بيروت، د .ط ، 1955م

(4) أبو زيد، أحمد : الرمز والأسطورة والبناء الاجتماعي، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج16، عدد3، 1985

(5) أحمد، محمد فتوح : الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، مصر، ط3 1977

(6) إسماعيل، عز الدين: الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي،ط3 1978

(7) البطل ، علي: الرَّمز الأسطوريّ في شعر بدر شاكر السّياب ، شركة الرّبيعان للنّشر والتّوزيع ، الكويت ، ط1 1982

(8) بلحاج ، كاملي : أثر التُّراث الشّعبيّ في تشكيل القصيدة العربيّة المعاصرة ، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب ، دمشق ، 2004

(9) الجندي، درويش : الرمزية في الأدب العربي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، (د، ط)، 1958

(10) درويش، محمود: الأعمال الشعرية الكاملة، مج 1–2، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، ط2، 2000

(11) سعيد، علي أحمد (أدونيس) : زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط3، 1983

(12) السواح، فراس: مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة سورية أرض الرافدين، دار علاء الدين، دمشق، ط1، 1996

(13) صالح ، محمد إبراهيم الحاج : محمود درويش بين الزعتر والصبار، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، د . ط ، 1999

(14) العظمة، نذير : سفر العنقاء، حفرية ثقافية في الأسطورة، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ط1 ، 1996

(15) عوض ، ريتّا : أسطورة الموت والانبعاث في الشِّعر العربيّ الحديث ، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر ، بيروت ، ط1، 1978

(16) القيرواني، ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد،ج1، مطبعة السعادة، مصر، ط1 1963م

(17) المصري، حسين مجيب : الأسطورة بين العرب والفرس والترك دراسة مقارنة، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1 ، 2000م

(18) النابلسي، شاكر: مجنون التراب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ط1 ، 1987

(19) ناصف، مصطفى : الصورة الأدبية، دار مصر للطباعة، ، (د، ط)، (د، ت)

(20) النشاوي ، نسيم: مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، (د، ط)

(21) هلال، محمد غنيمي : الأدب المقارن، دار الثقافة، بيروت، ط5، 1980